بنت البحر

قصة مصوّرة لرواند عيسى

القسم الأول:
أين ذهب البحر؟

الجية، لبنان - التسعينيات.
بُني أول مسبح على شاطئ الجية قبالة بيتنا. مُنعنا بعدها من النزول إلى الشاطئ. لم يعترِض أحد من أبناء البلدة على قرار المنع. كان قرارًا عاديًّا، "كل حدا حرّ بأرضه".
ممنوع الدخول
حينها، كان أهالي البلدة منهكين بحرب تحرير الجنوب، وبزراعة أراضيهم لتوفير الأكل لعائلاتهم. وفي الوقت نفسه، كان الباقي من البلد "يزدهر" بشكل سريع، بينما نحن، فلاحو هذه الأرض، لا حِيَل لنا للحاق بهذا الازدهار.

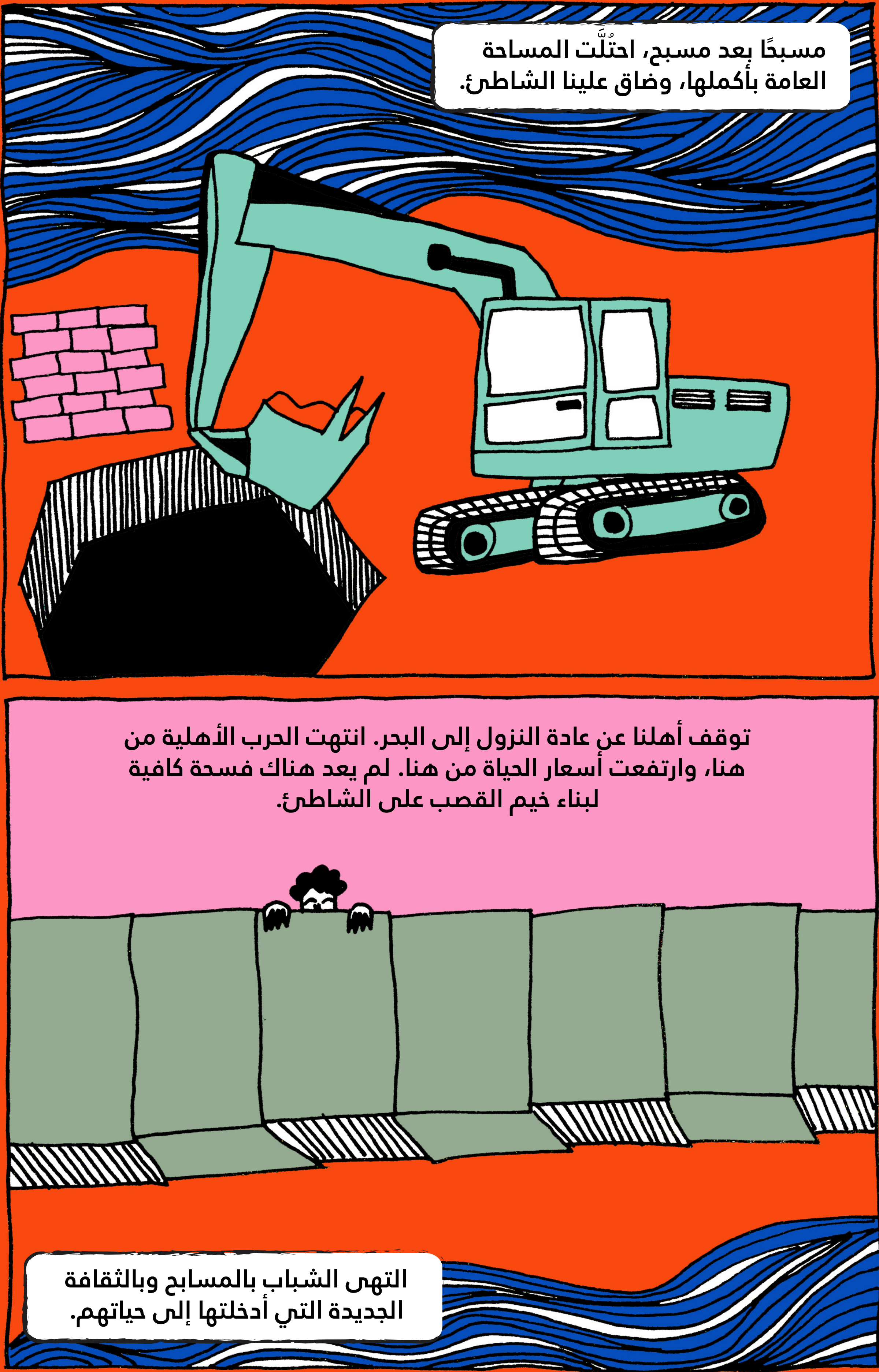
مسبحًا بعد مسبح، احتُلَّت المساحة
العامة بأكملها، وضاق علينا الشاطئ.
توقف أهلنا عن عادة النزول إلى البحر. انتهت الحرب الأهلية من
هنا، وارتفعت أسعار الحياة من هنا. لم يعد هناك فسحة كافية
لبناء خيم القصب على الشاطئ.
التهى الشباب بالمسابح وبالثقافة
الجديدة التي أدخلتها إلى حياتهم.

ندفع لنسبح، سرير على الشاطئ، بار، مطعم على أمواج البحر..
لمن كل هذا ؟
نحن أبناء هذه البلدة، لن نستطيع عيش هذه الحياة. لم يعترض أحد من شباب الضيعة، بالنسبة إليهم، وفّر هذا التغيير فرصَ عملٍ جديدة ليساعدوا أهلهم.
منقذ بحري
منقذ بحري
منقذ بحري
لم يعد البحر مكانًا نكبُر فيه. صار أعمالًا شاقة. تحوَّلنا من أبناء البحر، إلى خدم لأصحاب المسابح.

سمح بعض أصحاب المسابح لأهل الضيعة بالنزول إلى الشاطئ من المداخل، على شرط عدم الإقتراب من ممتلكاتهم.

منع الأهالي بناتهنَّ من الإختلاط مع شاربي الكحول على الشاطئ، تلك الناس التي تسمع موسيقى غريبة، وترقص حتى طلوع الفجر شبه عارية.
رفض الأهالي فكرة المسبح، ونظروا إليه كمجتمع غريب، لا ككيان احتلَّ المكان العام. وهكذا، قلّت زياراتنا للشاطئ، فصرنا ننزل مرَّة واحدة في الشهر بعدما كانت عادة النزول شبه يومية. كان البحر قريبًا منا: خطوتان فقط، ولكن بعيد الوصول.

حدَّت ثقافة المسابح من حريتنا، نحن البنات. كانت أمي تقول لنا، إن لُمِحَت فتيات الضيعة على البحر لوحدهنَّ، وُصمنَ.
لوين رايحة؟
أما فتيات المسبح فكنَّ يلبسنَ ما يرِدنَ، من دون أن يوصمهنَّ أحد بشيء. أجسادنا، نحن بنات الضيعة، كانت هي العورة.
البحر بطّل إلنا!
شافوها عالبحر لحالها! وبالمايو!!
لم تحتل المسابح البحرٍ فقط، احتلّت أجسادنا أيضا.
أدك..

لم أكن فتاةً مطيعة. "كنت مفحّلة
(قوية)". كانت أمي تسمح لي بالذهاب
إلى البحر أحياناً، أما عمّاتي فكنَّ يخبرنَ
أبي ويحرِّضْنَه لضربي حتى "أرتدّ".
وكجزء من إثبات الذات، ونكايةً بعمّاتي
ونساء الضيعة، زاد إصراري للنزول إلى
البحر والمسبح!
أنا، أيضاً، أريد أن أكون جزء من هذه
البيئة المحرّمة.

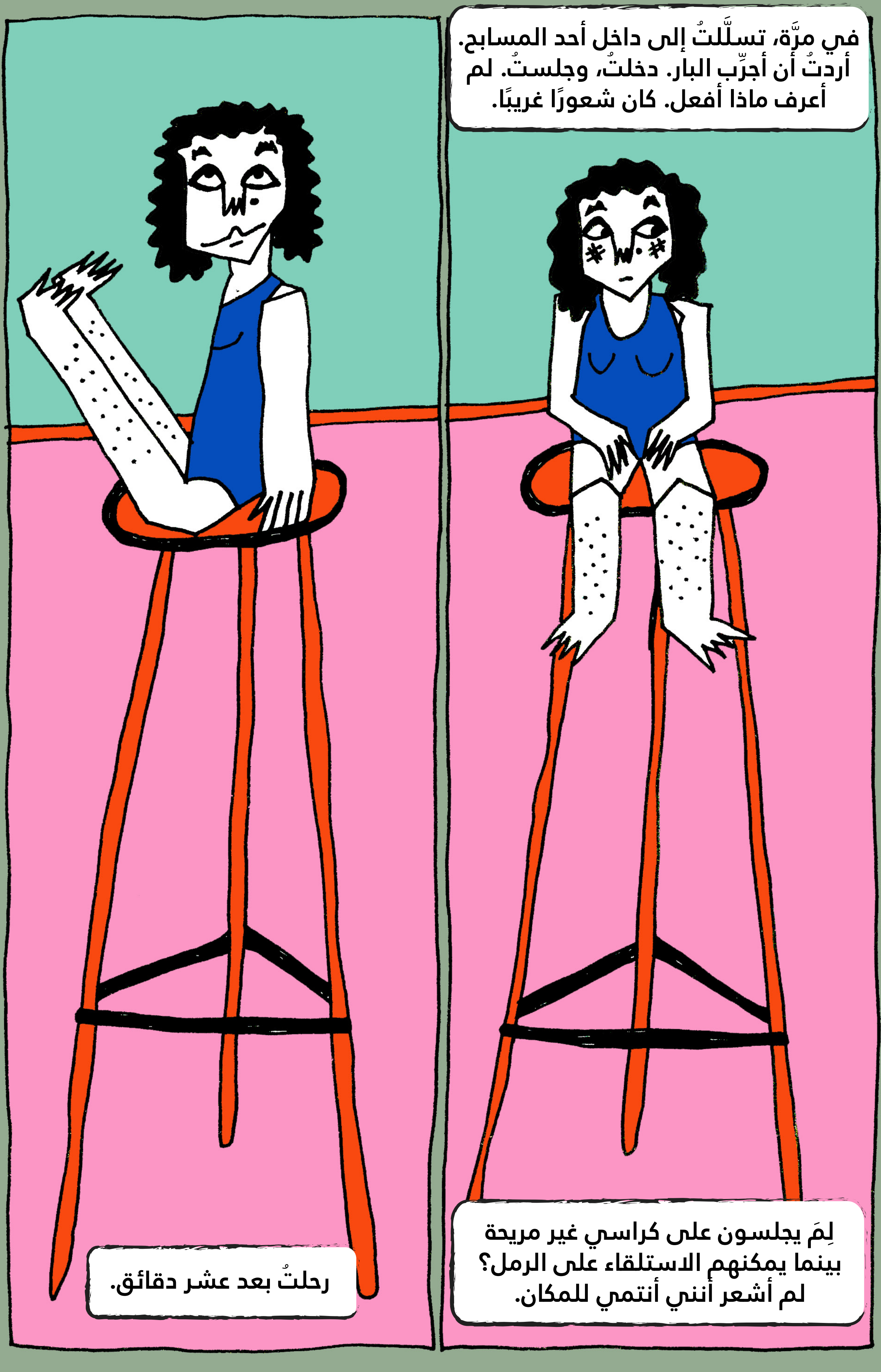

في مرَّة، تسلَّلتُ إلى داخل أحد المسابح.
أردتُ أن أجرِّب البار. دخلتُ، وجلستُ. لم
أعرف ماذا أفعل. كان شعورًا غريبًا.
لِمَ يجلسون على كراسي غير مريحة
بينما يمكنهم الاستلقاء على الرمل؟
لم أشعر أنني أنتمي للمكان.
رحلتُ بعد عشر دقائق.

تركوا لنا منفذًا وحيدًا ضيّقًا للشاطئ. "مش لسواد عيونا". لم يكن المنفذ قابلًا للاستثمار، انحصر كل الناس في هذه البقعة الصغيرة، فولّدت الزحمة مشاكل وأدَّت لعراكات من أجل الحصول على قعدة صغيرة على الشاطئ.
بدأ السكَّان القريبون من هذه المنطقة بالتذمُّر، فتقرَّر إغلاق المنفذ، وبهذا اختفى آخر مدخل للشاطئ الشعبي.
مغلق

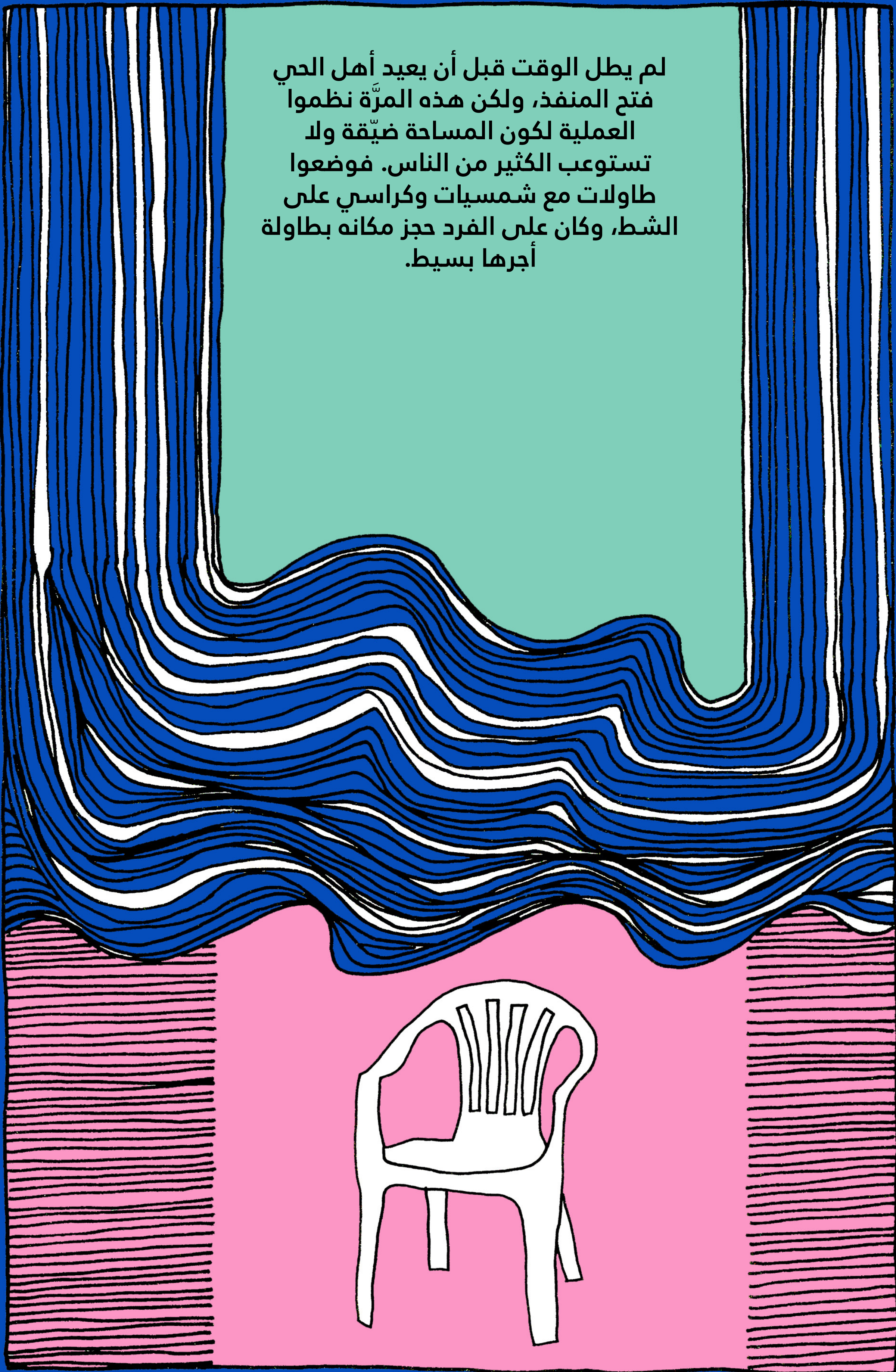
لم يطل الوقت قبل أن يعيد أهل الحي
فتح المنفذ، ولكن هذه المرَّة نظموا
العملية لكون المساحة ضيّقة ولا
تستوعب الكثير من الناس. فوضعوا
طاولات مع شمسيات وكراسي على
الشط، وكان على الفرد حجز مكانه بطاولة
أجرها بسيط.

أونتاريو، كندا - 2018.
كنت أسأل نفسي دائماً، كيف اجتاحت هذه المسابح ضيعتنا؟ ومن يتحمل المسؤولية؟ أهل الضيعة؟
كان معظمهم مزارعين، ومع "الازدهار الوحشي" الذي أكل البلد، وإهمال السلطة الحاكمة للزراعة، فقد هؤلاء الناس قدرتهم على الاستمرار.
باع بعضهم أراضيهم على الشاطئ، وأجّر آخرون الأراضي للمستثمرين.
لكن، هل يمكن لومهم؟

لطالما شعرتُ أنَّ جيل الثمانينات رُبي على فكرة الهزيمة. عاش أهلنا رعب الحروب المتتالية، فربُّونا أن نكون ممتنين لأبسط الحقوق، مثل أن يتواجد طعام على طاولتنا اليوم، الحمدلله.
لا نِريد أكثر من ذلك، "يا رب السترة". علّمونا أن نتحمَّل، لا أن نحارب. رضخنا لكل شيء وقبلنا بالقليل. سُرِق منّا البحر أمام أعيننا ولم يحارب منَ أجله أحد. أنا اختنقتُ من كثرة التحمُّل. هربت.

حين وصلني القبول على طلب الهجرة، حزمتُ كل أمتعتي في يومين.
كيف اتّسعت حياتي وحياة عائلتي في شنطتين؟ لم أحمل الكثير.

لم أتوقَّع الإحساس بالغربة. في لبنان لم نمتلك شيئًا، ولم أشعر يومًا بالانتماء.
كنت أشعر دائمًا أنني رهينة للدولة.
أعمل، أعمل، أعمل. أُذَلّ، أُذَلّ، أُذَلّ.
كنت معلِّمة، أعطي الكثير من قلبي، ولا يُعطى لي شيء في المقابل، لا احترام ولا تقدير ولا تأمين.
لا شيء غير أجر زهيد بالكاد كان يعيلني على مصاريف حياتي المتقشِّفة أصلًا.
لكنني بالرغم من كل ذلك، شعرتُ بالغربة بعد رحيلي، واكتشفتُ أنني أنتمي لذكرياتي، طفلةً تدوس الرمل وتخترق الأمواج.
من تكون بنت البحر بدون بحرها؟